زُهْد الحبيب ﷺ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [طه:131]

من طبيعة الإنسان إذا خُيِّر بين أن يعيش حياة التقشف والقِلّة، وحياة المُلك والغنى؛ فإنه سيختار حتمًا حياة المُلك والغنى على حياة التقشف والقِلّة

لكن شخصًا في هذه الدنيا خُيِّر بين هذا وذاك، فاختار حياة التقشف والقِلّة على حياة المُلك والغنى!

نعم.. إنه سيد الزهاد، وقُدوة العُبَّاد عليه الصلاة والسلام، فقد جاءه المَلَك من عند ربه؛ ليخيِّره بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا، أو يكون عبدًا رسولًا؛ فقيل له ﷺ -كما ذكر ابن كثير في تفسيره-: «إن شئتَ أعطيْنَاكَ من خزائنِ الأرضِ ومفاتِيحِها ما لم يُعْطَ نبيٌّ ولا نعطِهَا أحدًا بعدَكَ، ولا يُنقِصُكَ ذلك مما لك عند اللهِ شيئًا، وإن شئتَ جمعتُها لكَ في الآخرةِ» فقال: «اجْمَعُوهَا لِي فِي الْآخِرَةِ».

فأنزلَ اللهُ سبحانه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان: 10] (تفسير القرآن العظيم).

وفي رواية أخرى: «أَنَّ مَلَكًا نزَلَ من السماءِ»، فقال: «يا محمدُ أرسلني إليكَ ربُّكَ». قال: «أفملِكًا نبيًّا يجعلُكَ أو عبْدًا رسولًا؟» قال جبريلُ: «تَوَاضَعْ لربِّكَ يَا مُحَمَّدُ». فقال ﷺ: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا» (رواه أحمد).

يالله!! لقد خُيِّرَ ﷺ بين أن يُجمع له المُلْك في الدنيا ولا يُنقِص ذلك مما له عند الله في الآخرة، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وما ذلك إلا لزهده في الدنيا الفانية وإعراضه عنها ترقيًا لجزاء الله الباقي في الآخرة.

لقد تواترت الأخبار والشواهد على زهده ﷺ في الدنيا وإيثاره ما عند الله عز وجل، ومن المظاهر الدالة على ذلك:

ما الذي دعا النبي ﷺ للزهد وهو الذي لو أراد الدنيا لجاءته؟

زهد الحبيب ﷺ في بيته

حقيقةً إن المرء ليقف متعجبًا أمام ما يذكره علماء السير من وصف بيوت النبي ﷺ وقلة متاعها، فلم يكن فيها شيءٌ يملأ العين من الأثاث ونحوه

فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه يومًا في بيته، فرآه مضطجعًا على حصير قد أثر في جنبه، وألقى ببصره في خزانة رسول الله ﷺ فإذا فيها قبضةٌ من شعير، نحو الصاع، وقبضة أخرى من ورق الشجر في ناحية الغرفة. قال عمر: فابتدرتْ

www.withprophet.com

www.withprophet.com

عيناي بالبكاء. فقال ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنتَ رسولُ الله وصفوتُه، وهذه خزانتك؟! فقال ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟» قلت: بلى. (متفق عليه).

وفي رواية أخرى، فقال عمر: «يا نبي الله لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا؟» فقال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا! مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (رواه أحمد).

زهد الحبيب ﷺ في طعامه وشرابه

كان رسول الله ﷺ يكتفي من الطعام والشراب بما يُقيم الأودَ، وإذا تأملنا حياته ﷺ، ونظرنا كيف كان يعيش، فإننا راءون عجبًا، فكم بقي ﷺ طاويًا على الجوع، لا يجد ما يأكله، وهو رسولُ الله وصفوتُه من خلقه، يقول أبو هريرة: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ» (رواه البخاري).

وكان من زهده ﷺ وقلة ما بيده أن النار لا توقد في بيته بالأشهر، وتحكي أم المؤمنين عائشة عن ذلك فتقول: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ»، فسئلت: «فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟» قَالَتْ: «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ» (متفق عليه).

وتدخل امرأة مسكينة وابنتاها على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يشكون الجوع، فلم يكن في بيته ﷺ غير تمرة، فأعطيتُها إياها، فقسمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته فقال: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» (متفق عليه).

وفي مرة أخرى يطرق باب النبي ﷺ ضيف، فلا يجد ﷺ ما يضيفه، فيرسل إلى بيوته يسأل نساءه، فلا يجد عندهن شيئًا سوى الماء، فأرسل إلى أصحابه أن يضيِّفوه (متفق عليه).

بل يصل الأمر به إلى أنه «كَانَ يَرْبِطُ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ» (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة).

ورآه عمر رضي الله عنه يتلوى من الجوع، فما يجد رديء التمر يسد به جَوعَتَه، ثم رأى ﷺ ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ [والدَّقَل: هو التمر الرديء]» (رواه مسلم).

زهد محمد ﷺ في سائر أموره وأحواله

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلمًا وعدوانًا، وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلًا شهويًّا، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيًا كانت، لقد كان زاهدًا متقشفًا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار!!

توماس كارليل

كاتب اسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ

www.withprophet.com

www.withprophet.com

وجاءت فاطمة ذات يوم بكِسْرةِ خبزٍ شعير، فأكلها النبي ﷺ وقال: «هَذَا أَوَّلُ طَعَامٍ أَكَلَهُ أَبُوكِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»!!. (رواه أحمد).

كان هذا حال رسول الله وآل بيته إلى آخر يوم في حياته ﷺ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بيته مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ» (متفق عليه). وقالت أيضًا: «لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» (رواه مسلم).

هل يتنافى الزهد مع التمتع بنعم الله التي أنعم عليك؟ دلل على ما تقول.

زهد الحبيب ﷺ في ملبسه

ومع قدرته ﷺ على أن يتّخذ من الثياب أغلاها إلا أنه زهد فيها، دخل أبو بردة رضي الله عنه إلى عائشة أم المؤمنين فأخرجت كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا، ثم قالت: «قُبِضَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَيْنِ» (رواه البخاري).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ» (رواه البخاري).

وكان أحد الصحابة يمشي بالمدينة فإذا رجل، قال: «ارْفَعْ إِزَارَكَ؛ فَإِنَّهُ أَبْقَى وَأَتْقَى، قال: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هِيَ بُرْدَةٌ مَلْحَاءُ»، قَالَ: «أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ؟، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا إِزَارُهُ عَلَى نِصْفِ السَّاقِ» (رواه النسائي).

قال النبي ﷺ: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمِتْني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» (رواه الترمذي وابن ماجه).

هل مفهوم الزهد في الإسلام ينافي طلب السعي في الدنيا واهتمام الإنسان بأن يظهر بمظهر حسن؟ دلل على ما تقول.

زهد الحبيب ﷺ في المال

حبب للناس المال، لكن زهده ﷺ فيه عجيب!، قال أبو ذر رضي الله عنه: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرّة المدينة، فاستقبلنا أُحدًا، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ...» ثم مشى فقال: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (رواه البخاري).

قال عمرو بن العاص وهو يخطب الناس بمصر: «ما أبعدَ هديَكم من هدي نبيكم ﷺ، أما هو فكان أزهدَ الناس في الدنيا، وأنتم أرغبُ الناس فيها».

ولما تكلم بعض الناس على تقسيم الغنائم قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا الْخُمُسَ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ» (رواه أبو داود). أي إن الخمس الذي كان حقًّا له من الغنائم لم يكن النبي ﷺ يأخذه لنفسه، بل كان يتصدق به على المسلمين!

ومع ذلك كله فقد كان لسانه ﷺ لا يفتر أن يطلب دوام حال الكفاف والزهادة، فيقول داعيًا ربه: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا» (رواه البخاري).

www.withprophet.com

www.withprophet.com

وعندما مات ﷺ لم يترك قصرًا، ولا كنزًا، ولا حديقة، ولا أرصدة، وكان كل ما تركه كما يحكي لنا عمرو بن الحارث رضي الله عنه: «مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ إِلاَّ سِلاحَهُ وَبَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَأَرْضًا تَرَكَهَا صَدَقَةً» (رواه البخاري).

بل لقد حرَّم كل ذلك عليهم فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ» (متفق عليه).

لقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، ممتثلًا أمرَ ربه الذي أمره أن يعيش عيشة الكفاف والزهد، وأمره أن يخير نساءه بين حياة الزهد معه وتسريحهن إلى بيوت أهلهن، فاخترن جميعًا رضي الله عنهن البقاء معه على هذه الحال.

حتى إن ابنته فاطمة رضي الله عنها جاءت ذات يوم تشكو إليه ﷺ ما تلقى في يدها من الرحى، وترجو من أبيها أن يعطيها خادمًا يخفف عنها ما هي فيه، فما كان يجد ﷺ من نصيحة لابنته وزوجها أفضلَ من قوله: «أَلا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ» (متفق عليه).

لقد بلغ رسول الله ﷺ الكمال في الزهد، وفاق زُهدَ من سبقه وزُهدَ من جاء بعده، فهو ﷺ بحق إمام الزاهدين، فقد أتته الدنيا فأبى إلا أن يعيش كفافًا، لا يأخذ منها إلا الحد الأدنى الذي يقيم به حياته، ولو أراد الدنيا لجاءته، ولكان من أعظم ملوك الدنيا، ولكن قلبه كان متعلقًا بما عند ربه في الآخرة.

- هل تعرف قائدًا أو ملكًا أو رئيسًا زهد في الدنيا مثله ﷺ؟! ولماذا؟
- هل الزهد يعني الحياة الشاقة النكدة الحزينة؟ أم يعني الحياة السعيدة اليسيرة؟

كيف تقتدي به ﷺ

1. ليتعلق قلبك بما عند الله في الدار الآخرة، وإياك أن يملأ حُبُّ الدنيا قلبَك وحياتَك.
2. اعلم أن الدنيا وسيلة وطريق وليست غاية! قال ﷺ «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» (رواه البخاري) فاحرص في الطريق أن تصل إلى الغاية.
3. اعلم جيدًا أن المال وسيلة وليست غاية، فخذ منه بالحد الذي يعينك على ضرورات الحياة، «وَأَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ» كما أخبر ﷺ (رواه ابن حبان).
4. ﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فهذا الأصل ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77].
5. اعلم أن الدنيا تُعطَى للتقي والشقي، ولكن الآخرة للتقي فقط، قال ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» (رواه الحاكم).

www.withprophet.com